بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

وسورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) ﴾

اقتربت الآخرة وحساب الناس، ولكنهم غارقون فى غفلتهم وإعراضهم، كلما سمعوا تنزيلاً جديداً أو موعظة نبوية، أعرضوا وهم يلعبون ويلهون ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ وتحدثوا بظلمهم سرّا ﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ما محمد إلا بشر مثلكم، فكيف يسحركم بقرآنه وأقواله وأنتم تعرفون! قال محمد ﴿ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ربى عليم خبير بكل ما فى السموات والأرض، فهو يعلم ما تقولون، ويعلم تبليغى رسالته لكم.

* * *

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) ﴾

ولم يكتف المشركون بزعمهم أن محمداً (ﷺ) ساحر ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ما ينزل على محمد تخاليط أحلام ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ بل إن محمداً قد اختلقه على الله، بل ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾ ولكى نؤمن به لا بد أن يأتينا بآية معجزة كما فعل الرسل السابقون ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ إن القرى السابقة التى سألت أنبياءها المعجزات ثم جحدتها أهلكناها، فهل يؤمنون إذا أرسلنا لهم الآيات؟! ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وكل المرسلين قبلك كانوا بشراً نوحى إليهم مثلك يا محمد، فلم نرسل ملكًا قط، واسألوا أهل العلم إذا ما أردتم التأكد، وتظهر الإجابة الحق فيما أخبر القرآن عن الأمم السابقة، فاسألوا أهل العلم بالقرآن ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ كان جميع الأنبياء السابقين بشراً مثل الناس، يأكلون الطعام كبقية الناس، كما أنهم ماتوا جميعًا كبقية الناس ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ثم وفينا لرسلنا ما وعدناهم فى الدنيا والآخرة، فأنجيناهم وأهلكنا القوم المسرفين.

***

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ (١٥)﴾

يا أهل مكة وبلاد العرب ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً﴾ القرآن الكريم ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيمكنكم إذا اتبعتموه أن تعلوا من شأنكم ومن ذكركم فى كل مكان وزمان حتى يوم الحساب. قال ابن ابن كثير: [قال ابن عباس ﷺ: فيه شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم] وقال سيد قطب: [إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التى تنقضى فى جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل. ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا. فلم يكن لهم قبله ذكر، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به. ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قرونًا طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب. حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم، وصاروا ذيلاً للقافلة يتخطفهم الناس، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم

وهم آمنون] ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك! ولو اعتبرتم من قصص القرى الظالمة التى أهلكناها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ بعد أن انغمسوا فى لهوهم وظلمهم ونسوا ربهم، فقررنا إهلاكهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فلما أحسوا قُرْبَ العذاب والهلاك ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ إلى ترفكم ومنازلكم وضياعكم التى ذقتم فيها ألوانًا من التنعم والتلذذ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ وفى هذا تقريع لهم واستهزاء بهم لما كانوا ينكرون البعث والحساب ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يقولون ذلك عند معاينتهم عذاب استئصالهم فى الدنيا: هذا جزاء ظلمنا لأنفسنا ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ ظلوا يرددون ذلك حتى أصبحوا كالحصيد؛ أى الزرع المحصود، خامدين بلا حراك ولا حتى صوت.

***

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١)﴾

قال سيد قطب: [لقد خلق الله ـ سبحانه ـ هذا الكون لحكمة، لا لعبًا ولا لهوًا. ودبره بحكمة، لا جزافًا ولا هوى، وبالجد الذى خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وفرض الفرائض، وشرع التكاليف.. فالجد أصيل فى طبيعة هذا الكون، أصيل فى تدبيره، أصيل فى العقيدة التى أرادها الله للناس، أصيل فى الحساب الذى يأخذهم به بعد الممات.

ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوًا لا تخذه من لدنه. لهوًا ذاتيًا لا يتعلق بشىء من مخلوقاته الحادثة الفانية. وهو مجرد فرض جدلى: «لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا».. ولو ـ كما يقول النحاة (علماء النحو) ـ حرف امتناع لامتناع. تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط. فالله ـ سبحانه ـ لم يرد أن يتخذ لهوًا، فلم يكن هناك لهو. لا من لدنه ولا من شىء خارج عنه.

ولن يكون؛ لأن الله ـ سبحانه ـ لم يرده ابتداء، ولم يوجه إليه إرادته أصلاً: «إن كنا فاعلين».. وإن حرف نفى بمعنى ما، والصيغة لنفى إرادة الفعل ابتداء.

إنما هو فرض جدلى لتقرير حقيقة مجردة . . هى أن كل ما يتعلق بذات الله ـ سبحانه ـ قديم لا حادث ، وباق غير فان . فلو أراد ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهواً لما كان هذا اللهو حادثًا ، ولا كان متعلقًا بحادث كالسماء والأرض وما بينهما ، فكلها حوادث . . إنما كان يكون ذاتيًا من لدنه ـ سبحانه ـ . فيكون أزليًا باقيًا ؛ لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية .

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض :

«بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» . .

و«بل» للإضراب عن الحديث فى موضوع اللهو ؛ والعدول عنه إلى الحديث فى الواقع المقرر الذى تجرى به السنة ويقتضيه الناموس . وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

هذه هى السنة المقررة ، فالحق أصيل فى طبيعة الكون ، عميق فى تكوين الوجود . والباطل منفى عن خلقة هذا الكون أصلاً ، طارئ لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ، يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشىء يطارده الله ؛ ولا حياة لشىء تقذفه يد الله فتدمغه !

ولقد يخيل للناس أحيانًا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التى يقررها العليم الخبير . وذلك فى الفترات التى يبدو فيها الباطل منتفشًا كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزويًا كأنه مغلوب . وإن هى إلا فترة من الزمان ، يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجرى السنة الأزلية الباقية التى قام عليها بناء السماء والأرض ؛ وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك فى صدق وعده ؛ وفى أصالة الحق فى بناء الوجود ونظامه ؛ وفى نصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فيدمغه . . فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينًا من الدهر عرفوا أنها الفتنة ؛ وأدركوا أنه الابتلاء ؛ وأحسوا أن ربهم يربيهم ؛ لأن فيهم ضعفًا أو نقصًا ؛ وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف . . وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء . أما العاقبة فهى مقررة : «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» والله يفعل ما يريد»] ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فهو خالقهم وإليه يرجعون ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ من الملائكة ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ لا يفتعلون الكبر عن عبادته ولا يكلون منها ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ يسبحونه دائمًا أبدًا ، لا يضعفون ـ ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ

﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أم اتخذتم شركاء من الأرض، فهل يحيون الموتى؟!.

* * *

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾

لو أن هناك آلهه تشارك الله ملكه فى السموات والأرض لاختلتا واضطربتا لاختلاف الآلهة ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ عما يصفه المشركون ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ ليس هناك من له قدرة ولا حجة على حساب الله، وهو يسأل خلقه جميعًا يوم الحساب على أفعالهم، وهو واضع موازين الحساب ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قال الرازى: [استغظامًا لكفرهم، أى وصفهم الله بأن له شريكًا، فهاتوا برهانكم على ذلك]، وهذا قول أكثر المفسرين، وتحتمل الآية وجهًا آخر؛ إذا عادت ﴿اتَّخَذُوا﴾ على الملائكة الذين عبدوهم، فيكون المعنى: هاتوا برهانكم على أن الملائكة عبدوا غير الله، فإذا كانت الملائكة تعبد الله، فكيف لا تعبدونه وتعبدونهم؟ ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ هذا وحى الله لمن معى، وأمرهم وشأنهم، ووحى الله لمن قبلى، وأمرهم وشأنهم مع أنبيائهم، بل أكثرهم لا يعلمون الحق بإعراضهم عنه، ثم تؤكد الآية جوهر كل الرسالات ووحيها ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

* * *

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قال الطبرى: [قال قتادة: قالت اليهود: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ صاهر الجن، فكانت منهم الملائكة[1]. قال تعالى تكذيبًا لهم ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ

(١) جاء فى سفر التكوين: وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض وولد لهم بنات، انجذبت انظار أبناء الله إلى بنات الناس، فرأوا أنهن جميلات، فاتخذوا منهن زوجات حسب ما طاب لهم ـ الإصحاح ٦: ١-٢.

﴿مُكْرَمُونَ﴾ أى أن الملائكة خلق الله، ولكنهم مقربون إليه. ومثل ذلك قال أحد أحياء خُزاعة وبعض أحياء العرب] لا يأمرون بشىء ولا ينهون عن شىء إلا بإذنه وأمره، يعلم ما فعلوا وما سيفعلون، ولا يشفعون إلا بإذنه حسبما يرضى ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ومن يزعم منهم الألوهية ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

***

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾

قال زغلول النجار: [الرتق فى اللغة عكس الفتق، والفتق: هو الفصل والشق والانشطار. والمعنى الواضح لنا من هذه الآية الكريمة أن السماوات والأرض كانتا فى الأصل شيئًا واحدًا متصلاً، وملتئمًا، وملتحمًا، ففتقه ربنا (تبارك وتعالى) بأمر منه (سبحانه) إلى الأرض التى نحيا عليها، وإلى سبع سماوات من فوقنا.

والقرآن الكريم هنا يعطى الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكونى العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة فى صفحة السماء لتؤكد فى منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله (تعالى) فى آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) من قبل ألف وأربعمائة من السنين. هذا السبق القرآنى بحقيقة الفتق بعد الرتق يجعلنا نرتقى بنظرية الانفجار الكونى العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب، وليس العكس] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فلا حياة بلا ماء ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ يتكشف معنى هذا السؤال الاستنكارى بعدما عرف البشر الحقيقتين العلميتين فى الآية السابقة وآية ﴿وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ الرواسى هى الجبال الكبيرة الثابتة، وهى تمنع اضطراب واهتزاز، أو رجرجة الأرض عند دورانها حول محورها، وقال زغلول النجار: [الجبال ترسو بأوتادها فى نطاق الضعف الأرضى، (ذلك) يقلل من شدة ترنح الأرض فى دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظامًا وسلاسة، تمامًا كما تفعل قطع الرصاص حول إطار السيارة للتقليل من رجرجتها] فكأن

الآيتين تخاطبان أجيال البشر التى عرفت ذلك بالعلم فى عصرنا الحالى، وإلى يوم البعث ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وجعلنا فى الأرضى طرقًا واسعة لعل البشر يهتدون بها ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ السماء بالنسبة لنا كالسقف، وهو سقف محفوظ من أى خلل فى البناء، حتى يأتى أمر الله ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فلا يتفكرون فى بديع صنعها وقدرة خالقها ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فى نظام دقيق محكم، يدل على يد القدرة وحضورها المستمر.

***

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾

كان الكفار يتربصون ويتطلعون لموت الرسول (ﷺ) أملاً فى عودة أحوالهم لما كانت عليه، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَأَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ إنك يا محمد ميت وإنهم ميتون ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ لا محالة ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فالحياة دنيا كلها ابتلاء ـ كما جاء فى سورة الملك ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾، وفى الآخرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] ـ ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا ﴾ كلما رآك الكافرون سخروا واستهزأوا قائلين: هذا هو محمد الذى يقول إن آلهتنا لا تضر ولا تنفع، فى الوقت الذى يكفرون بالقرآن وبالإسلام ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ يستعجل الكفار عقاب ربهم، كما تبين تكملة الآية ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ويتحدون قائلين كما قال الذين من قبلهم وكانوا من أمثالهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) ﴾.

***

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) ﴾

لو يعلم الكفار ما يستعجلونه؟ حين لا يستطيعون أن يحموا وجوههم ولا ظهورهم من لهيب جهنم ولا ناصر لهم؛ حين تأتى الساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتذهلهم، ولن يستطيعوا ردها ولا تأجيلها ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فنزل بالمستهزئين عقاب أليم.

***

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾

من يحفظكم أيها الناس ويحرسكم بالليل والنهار! من الذى يجعل قلبكم يدق ليلاً ونهاراً ليضخ الدم إلى المخ وسائر أجزاء الجسم؟ من الذى يجعل أجهزتكم العصبية والهضمية وغيرها تعمل؟ ليس لكم فضل فى ذلك ولا دخل، وربما لا تعلمون عنه شيئًا، فمن وراء ذلك؟ فلماذا تتجاسرون وتعرضون عن ذكر ربكم؟! فهل لكم آلهة قوية فعالة خالقة تحفظكم من عذابنا؟ والحقيقة أن أصنامكم لا تنصر أنفسها ﴿ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ ولا هم من الله يحظون بصحبة وشأن ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ بل جاء تكبر وجحود أولئك الناس من نعم الله عليهم وعلى آبائهم، وبدلاً من أن يحمدوا ويشكروا، تنكروا وكفروا ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أكثر التفاسير القديمة أوّلت الآية بأن المسلمين يكسبون أرضًا ممن حارب الإسلام، ويمكن القول اليوم بأن عدد المسلمين يتزايد فى كل أنحاء الأرض، شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا. وربما يقول أحد العلماء اليوم إن مساحة الماء فى ازدياد على حساب مساحة اليابس، والله أعلم.

***

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾

قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ أنذركم بكلام الله وليس بكلامى، ومن يعطل مداركه فهو كالأصم، لا يسمع دعاء الله ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ إذا ما مسهم

نصيب يسير من العذاب اعترفوا مولولين ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ويوم الحساب؛ يقيم الله الميزان الحق، فلا ظلم لأحد ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ فكل صغيرة وكبيرة قد سطرت ـ والخردل نبات يضربون المثل فى الصغر بحبته.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ التوراة كتابًا فارقًا بين الحق والباطل ﴿ وَضِيَاءً ﴾ للهداية ﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يطمئن قلوبهم، أولئك ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ وكما آتينا موسى وهارون التوراة، آتيناك هذا القرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ من عند الله يُقوى القلوب ويطمئنها، أفتنكرونه تكبرًا وجحودًا؟.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾

تعطى الآيات السابقة مشاهد من قصة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه، فقد آتاه الله ﴿رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ هداه من قبل موسى (عليه السلام) ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ فسبحانه عالم بكل شيء، والمقصود هنا تقدير الله ـ تعالى ـ لإيمانه وقنوته حنيفًا، استنكر إبراهيم (عليه السلام) عبادة أبيه وقومه التماثيل، فأجابوه مثلما أجاب كثير من الأقوام الضالين ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)﴾ فأجابهم: فلا معنى لهذا إلا أن آباءكم ضالون مثلكم، أو أنكم أنتم ضالون مثلهم. قالوا: أترى ذلك حقّا أم أنك تلعب؟ بمعنى هل جُننت أم تمزح؟ ثم حطم إبراهيم (عليه السلام) أصنامهم فى غيابهم، فجعلها قطعًا مفتتة وترك كبيرهم، فلما عادوا تساءلوا بينهم عمن فعل ذلك، فقال بعضهم عما سمعه من إبراهيم (عليه السلام)، فاستدعوه لمحاكمته أمام الناس ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)﴾؟ فأجابهم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)﴾ فتنبه القوم أن آلهتهم لا تتكلم، وأن كبيرهم عاجز أن يلحق الأذى ببقية الأصنام، فتبين القوم ظلمهم بعبادة الأصنام. ولكن سرعان ما انقلبوا على رؤوسهم، بكل ما فى كلمة انقلاب من معنى، وقالوا بلا رؤوس وبلا حياء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ فأجابهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فأخذتهم العزة بالإثم وحكموا عليه بالحرق، وأوقدوا نارًا ألقوه فيها، ولكن قال الإله الحق: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فنجا إبراهيم (عليه السلام) وخسر هنالك الظالمون. ثم أرسل الله إبراهيم (عليه السلام) ومعه لوط (عليه السلام) إلى ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: إنها الشام أو فلسطين، وبركتها ظهور الرسل والأنبياء بها، ونزل لوط بالقرب منه. ثم ختمت الآيات قصة إبراهيم (عليه السلام) فى هذه السورة، وكأن الله أثابه على ما فعل بأن وهب له إسحاق، ثم حفيده يعقوب صلى الله عليهما وسلم، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، وبوحيه يعملون الخيرات ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويعبدون ربهم رب العالمين.

***

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾

وهب الله لوطًا (عليه السلام) الحكمة والعلم، ونجاه من قريته التى كان أهلها يمارسون الشذوذ الجنسى الذى سماه رب العالمين ﴿الْخَبَائِثَ﴾ ووصف من يفعله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ فنجاه الله منهم، وأدخله فى رحمته؛ لأنه كان من الصالحين.

***

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾

﴿ وَنُوحًا ﴾ من قبل إبراهيم ولوط ـ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـ نادى ربه بعد أن مكث نحو ألف سنة يدعو قومه وهم يتكبرون، فشكا لله ما وجده منهم ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ [القمر]، ودعاه أن يطهر الأرض من الكافرين، فاستجاب له ربه ونجاه وأهله، باستثناء زوجته وابنه، فى الفلك من الطوفان.

* * *

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

آتى الله كلاّ من داود (عليه السلام) وابنه سليمان (عليه السلام) الحكمة، وهى حسن تقدير الأمور وحسن التصرف فيها، والعلم، و يشمل ذلك العلم الشرعى والعلم الدنيوى، مثل علم داود (عليه السلام) بصناعة الدروع، أو علم سليمان (عليه السلام) بمنطق الطير ولغة النمل، وما إلى ذلك. حكم داود (عليه السلام) فى الزرع الذى أفسده غنم قوم، ولكن جاء سليمان (عليه السلام)، بفهم من الله، بحكم أصوب من حكم أبيه. وتروى معظم التفاسير قصة الغنم والزرع من تراث أهل الكتاب، وقد استخرج منها القرطبى ستة وعشرين مسألة، ربما كان أهمها ما استشهد فيها بالحديث النبوى «إذا حكم الحاكم واجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» متفق عليه، والمسألة الثانية استشهد فيها بالحديث الآخر «على أهل الأموال حفظها بما فيها، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل» رواه أبو داود ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال سيد قطب: [وقد عرف داود ـ عليه السلام ـ بمزاميره. وهى تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجع معه الجبال والطير. وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله؛ وينبض قلب الوجود معه؛ وتنزاح العوائق والحواجز

الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التى تميز الأنواع والأجناس، وتقيم بينها الحدود والحواجز، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها فى ضمير الكون وحقيقته.

ومن النص القرآنى نتصور داود وهو يرتل مزاميره، وتهيم روحه فى ظلال الله فى هذا الكون ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء. فيحس ترجيعها، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه. وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده. «وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم». وإنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات، المتجهة كلها إلى الله.

«وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير». «وكنا فاعلين» فما هنالك من شىء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد. يستوى أن يكون مألوفًا للناس أو غير مألوف.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

تلك هى صنعة الدروع حلقًا متداخلة، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة. والزرد المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة، ويبدو أن داود هو الذى ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله. والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم فى الحرب: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض: «فهل أنتم شاكرون؟» ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام. ولكن لا نضل فى هذا التيه. فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن فى قصة سليمان بالذات. والنص القرآنى هنا يقرر تسخير الريح ـ وهى عاصفة ـ لسليمان، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها. وهى فى الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة فى قصة إبراهيم. فكيف كان هذا التسخير؟ هنالك قصة بساط الريح الذى قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته، فيطير بهم إلى الشام فى فترة وجيزة. وهى مسافة كانت تقطع فى شهر على الجمال. ثم يعود كذلك. وتستند هذه الرواية إلى ما ورد فى سورة «سبأ» من قوله: «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر». ولكن القرآن لم يذكر شيئًا عن بساط الريح ذاك؛ ولم يرد ذكره كذلك فى أى أثر مستيقن. فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط.

والأسلم ـ إذن ـ أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها ـ بأمر الله ـ إلى الأرض المباركة فى دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً . . كيف؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تُسأل كيف؟ فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ . . العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود .

وكذلك تسخير الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ ليغوصوا فى أعماق البحر أو أعماق اليابسة . ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان ؛ أو ليعملوا له أعمالاً غير هذا وذاك . . فالجن كل ما خفى . وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقًا يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك . وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وعند هذا الحد المأمون نقف فى ظلال النصوص . فلا نسبح فى الإسرائيليات] .

* * *

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾

واذكر يا محمد أيوب الذى ابتليناه فدعا ربه متأدبًا غير شاك ، فقال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يا رحمن يا رحيم لقد مسنى الضر . وهو هنا ينهج نهج موسى (عليه السلام) عندما قال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فاستجاب ربه لدعائه وكشف عنه الضر ، وآتاه أهله مُضاعفين ، رحمة وتفضلاً لعبده الصابر ؛ وليكون قدوة ومثلاً للعابدين .

* * *

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾

واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ كلهم كانوا صابرين ، فأدخلناهم فى رحمتنا جزاء عملهم الصالح ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ وذا الحوت الذى ترك

قومه غضبان، فظن أن لن نضيق عليه بالابتلاء وبجحود قومه، فجعلناه فى بطن الحوت؛ حيث نادى ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فاستجبنا له، ونجيناه من الغم الذى أصابه من غضبنا عليه، ونجيناه من بطن الحوت، وكذلك ننجى المؤمنين.

* * *

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾

واذكر دعاء زكريا ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ توجه زكريا (ﷺ) بهذا الدعاء إلى ربه لما وجد رزق الله الوفير لمريم، على غير العادة ـ كما جاء فى آل عمران ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ ـ فاستجاب الله له وأصلح له زوجه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ والضمائر تعود على ثلاثتهم، فرب سائل: كيف ذلك ولم يكن هناك إلا زكريا وزوجه؟! فالإجابة: ذلك بحساب البشر، وليس بحساب خالق البشر وخالق الزمان وما يحدث فيه وما لا يحدث ﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ واذكر مريم البتول التى نفخنا فيها من روحنا لتنجب عيسى (ﷺ) دون أب، لنجعلها وابنها آية للعالمين على قدرتنا ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ يا أيها المؤمنون الموحدون بالله، يا من أسلمتم وجهكم لله، إن أمتكم أمة واحدة، أمة المؤمنين، وأنا ربكم فاعبدون.

* * *

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾

ولكن ﴿ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ تفرقوا فى أمر دينهم فرقًا وأحزابًا، وجميعهم عائدون إلى ربهم ليحكم بينهم، فمن آمن وعمل صالحًا فلن يخسر سعيه الذى تسجله الملائكة ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) ﴾ محال على أهل قرية أهلكناها أن لا يرجعوا إلينا لحسابهم، وقال سيد قطب: [والجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه قسط فى الدنيا. فالقرى التى هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتمًا لتنال جزاءها الأخير، وعدم عودتها ممتنعة، فهى راجعة بكل تأكيد. «وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون». إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال: «كل إلينا راجعون» لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها فى الدنيا كان نهاية أمرها، ونهاية حسابها وجزائها. فهو يؤكد رجعتها إلى الله، وينفى عدم الرجعة نفيًا قاطعًا فى صورة التحريم لوقوعه.. وهو تعبير فيه شىء من الغرابة، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن «لا» زائدة، وأن المعنى هو نفى رجعة القرى إلى الحياة فى الدنيا بعد إهلاكها. أو نفى رجوعهم عن غيهم إلى قيام الساعة. وكلاهما تأويل لا داعى له. وتفسير النص على ظاهره أولى؛ لأن له وجهه فى السياق على النحو الذى ذكرنا] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ الله أعلم بمراده من فتح يأجوج ومأجوج، ومن إسراعهم من كل مرتفع ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يوم البعث والحساب ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أبصار الذين كفروا لا تكاد تطرف من هول الموقف يقولون مولولين ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

***

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها الكافرون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ حطبها ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ قال الماتريدى: [الشياطين الذين أمروهم ودعوهم إلى عبادة غير الله، فتكون العبادة لمن دونه (لمن دون الله) للشيطان حقيقة؛ لأنه هو الآمر لهم بذلك]، ومثلما قال الماتريدى يُقال عن شياطين الإنس الذين يضلون الناس فيتبعونهم كما لو كانوا آلهة ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ لو كان شياطين الجن والإنس الذين أضلوكم، واتبعتموهم من دون الله، لو كانوا آلهة ما وردوا جهنم، ولكن هم فيها يزفرون الندم والحسرة، ولا يستمع إليهم أحد. وقال الخطيب الشربينى:

[قال ابن الزبعرى للرسول (ﷺ): أليس اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟، فقال (ﷺ): «بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك»].

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾

قال الماتريدى: [﴿الْحُسْنَى﴾ يحتمل (أن يكون المقصود بها) الجنة، ويحتمل السعادة والبشارة بالجنة وثوابها]، والأشمل والأعم من ذلك أن يكون المقصود بها كلمة الله الحسنى، فأولئك مبعدون عن النار، ولا حتى يسمعوا صوت حسيس النار واشتعالها من شدة اتقادها؛ وهم فى كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين خالدون ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ يوم الحشر؛ لأن الملائكة تستقبلهم مبشرة لهم بكل الوعود الطيبة.

* * *

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾

يوم يطوى الله السماء كطى الصحيفة على ما فيها من كتابات، نعيد خلق البشر كما خلقناهم أول مرة، وكان وعداً مفعولاً ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال سعيد عن جبير ومجاهد: [﴿الزَّبُورِ﴾ هى كل الكتب المنزلة: التوراة ومزامير داود والإنجيل والقرآن] وبهذا قال المفسرون، كذلك قالوا: إن المقصود بالذكر اللوح المحفوظ، وقال القرطبى: [زبرت أى كتبت، وجمعه زُبُر] وقال: [﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض الجنة، كما قال سعيد بن جبير؛ لأن الأرض (الدنيا) قد ورثها الصالحون وغيرهم، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وقال مجاهد وأبو العالية: دليل هذا التأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]] ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾.

* * *

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ إلا رحمة للناس أجمعين، والرسل من قبله أرسلوا لأقوامهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال سيد قطب: [فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل فى تلك الرسالة. عنصر التوحيد المطلق الذى ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أثقال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة. والذى يقيم الحياة على قاعدتها الركينة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات. والذى يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحنى الرؤوس إلا لله الواحد القهار.

هذا هو طريق الرحمة.. ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

وهذا هو السؤال الواحد الذى يكلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلقيه على المكذبين المستهزئين. «فإن تولوا فقل: آذنتكم على سواء». أى كشفت لكم ما عندى، فأنا وأنتم على علم سواء. «وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون». آذنتكم على سواء. ولست أدرى متى يحل بكم ما توعدون. فهو غيب من غيب الله. لا يعلمه إلا الله.

وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه فى الدنيا أو فى الآخرة. وهو يعلم سركم وجهركم، فما يخفى عليه منكم خافية:

«إنه يعلم الجهر من القول، ويعلم ما تكتمون».

فأمركم كله مكشوف له، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه. وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله:

«وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين».

وما أدرى ما يريد الله بهذا التأخير. فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء، فيمتعكم إلى أجل، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر. وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية، ويدعهم يتوقعون كل احتمال، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التى تأخذهم بغتة. وتوقظ قلوبهم من

غفلة المتاع، فلعل وراءه الفتنة والبلاء. وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة، ترقب فى كل لحظة أن يرفع الستار المسدل، عن الغيب المخبوء.

وإن القلب البشرى ليغفل عما ينتظره من غيب الله، وإن المتاع ليخدع، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراءه مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله فى موعده المغيب المجهول.

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة، ويعذر إليها بين يدى الله قبل فوات الأوان.

وهنا يتوجه الرسول (ﷺ) إلى ربه. وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة. وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء.. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم. وهو وحده المستعان:

«قال: رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون».

وصفة الرحمة هنا ذات مدلول. فهو الذى أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون. وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون. وبهذا المقطع القوى تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوى. فيتقابل طرفاها فى إيقاع نافذ قوى مثير عميق].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) ﴾

هذا النداء الذى يزلزل القلوب موجه إلى الناس كافة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ احذروا يوم الزلزلة، يوم نهاية الحياة الدنيا والبعث للحساب، وقدموا لأنفسكم قبل فوات الأوان ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ من هول زلزلة الساعة أن تذهل المرضعة عن رضيعها وعن إرضاعه، وتضع الحامل وليدها ـ ومن هنا قال المفسرون: إن زلزلة الساعة هى نهاية الدنيا قبل البعث، وليس هناك ما يمنع أن يكون كل ذلك فى يوم واحد، بل فى ساعة واحدة أو أقل والزمن أحد مخلوقات الله، يمده أو يقصره كما يشاء وكيف يشاء ـ ويصبح الناس كالسكارى، غائبى العقول، وما تعاطوا شيئًا،

(*) قال بعض العلماء فى هذه السورة إنها مدنية واستثنى منها الآيات (٥٢ : ٥٥)، وقال البعض الآخر مكية، واستثنى منها قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ الآيتين، وإلا ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ الست آيات، فقال إنها مدنية.

ولكن عذاب الله شديد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهو يجادل بما يمليه عليه هواه، ويتبع كل شيطان متمرد من شياطين الإنس والجن، من يتبعهم يقدمون به إلى النار، بئس الورد المورود.

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ فتذكروا قدرة الله حين خلقكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أى أباكم آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جاء كل نسل آدم من نطفته، التى تحولت إلى ﴿عَلَقَةٍ﴾ علقت بويضة الأنثى بعد تلقيحها بجدار الرحم ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قدر ما يمضغ، وأظهر علم الأجنة أن لها شكل المضغة الذى يظهر فيه آثار الضروس ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال الطبرى: [المخلقة: المصورة خلقًا تامّا، وغير مخلقة: السقط قبل تمام خلقه]، أو تلك مرحلة، وتلك مرحلة سابقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ قدرتنا على الخلق من تراب، إلى نطفة إلى علقة، ولنبين لكم أصلكم حتى لا يتكبروا، ولا تصبحوا نطفًا خصيمة ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ ونثبت فى الرحم ما نشاء من الأجنة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو مدة الحمل ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ تبلغون، بعد ميلادكم أطفالاً، كمال قوتكم وعقلكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ حين يبلغ أشده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يضعف جسمه وعقله، ويصبح عاجزًا، فكأنه رُدّ إلى طفولته ولكن فى صورة كهل عجوز. وكما يحول الله التراب إلى نطف، تنتهى بميلاد أطفال يشبون ويشتدون إلى أن يموتوا، أو يرتدوا بعد شدتهم أطفالاً، ثم يموتوا، فإنه يحيى الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فتجدها تهتز باختراق النبات جوفها فى نموه وارتفاعه إلى سطح الأرض، ثم ارتفاعه فوقه، فتنمو الأرض بنمو النبات، وتظهر لنا أزواج بهيجة من مختلف الثمرات. فالحق هو الله الذى خلق الأكوان، ليس من اتخذوهم شركاء، وليس قانون الصدفة وما إلى ذلك من جدالات الأهواء، وإنه يبعث الحياة فى كل مكان وزمان، وهو على كل شىء قدير، ولم يخلق الدنيا عبثًا لينتهى أمر كل إنسان بوفاته، ولكن لساعة آتية لا ريب فيها، يبعث الناس من قبورهم، ويضع الموازين الحق للحياة الحقة بعد البعث والحساب.

***

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾

أولئك الذين يجادلون فى الله بغير علم، اتباعًا لأهوائهم وشياطينهم، تجد الواحد منهم ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ لاويًا جانبه تكبرًا وإباءً وإعراضًا عن الحق وإضلالاً لغيره عن سبيل الله، فجزاؤه ﴿ خِزْيٌ ﴾ هوان وذلة فى الدنيا، مهما بدا لك من ظاهر حاله، فما يعلم جنود ربك إلا هو، ويوم القيامة له عذاب جهنم بما قدم فى الدنيا ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وهناك فريق من الناس ﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أى يعبده على شك وتردد ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ أما ﴿ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ فقد إيمانه بالله رب الأكوان، وبدلاً من أن يدعوه أصبح ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ وقد جاء فى الحديث «الدعاء هو العبادة» رواه الترمذى، فالمرء يدعو من يعتقد أن بيده النفع والضرر، وفى دعوة غير الله ضرر الإشراك.

***

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾

دائمًا وأبدًا يذكرنا المولى ـ عز وجل ـ بأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فى الدنيا تنتظرهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، والله يثيب المتقين بما يشاء من النعم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ليس هناك من يمنع الله عن شىء، وقد قضى بعدله وحكمته وجلال شأنه كله، أن يثيب المتقين ويعاقب الكافرين ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ تعددت تأويلات المفسرين فى ذلك، وربما كان أرجحها قول سيد قطب: [وهو مشهد متحرك لغيظ النفس، وللحركات

المصاحبة لذلك الغيظ، يجسم هذه الحالة التى يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه، عندما ينزل بها الضر وهى على غير اتصال بالله.

والذى ييأس فى الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء فى الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء.

فمن كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق. ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق.. ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه!

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله. ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله. ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله. وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله.. فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التى تنسم عليه من روح الله] ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ وكذلك أنزلنا القرآن آيات واضحات جليات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ كررت آيات القرآن وأكدت أن الله وحده بيده الهداية، والرزق، والعزة، والأجل، ومن ناحية أخرى، بينت آيات كثيرة المنهج الربانى، وهو أن الله يهدى من آمن به اتباعًا لفطرته ومداركه من سمع وبصر وعقل، ويضل من كفر واتبع هواه تكبرًا وجحودًا. ويمكن للقارئ الاستعانة بالمعجم المفهرس لعبد الباقى ليقرأ آيات الهداية، ونذكر بعضها فى الهامش[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الذين اتبعوا موسى (ﷺ) ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين غيروا دينهم الزائف الذى ولدوا عليه إلى الحنيفية ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ الذين

(١) ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَيَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

اتبعوا عيسى (ﷺ) ﴿ وَالْمَجُوسَ ﴾ عباد النار ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ عُبَّاد الأوثان والأصنام وغيرهم من البشر، جميع هؤلاء سيحكم الله بينهم يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تبين الآية أن الحكم فى أتباع الديانات الكتابية وغير الكتابية هو من أمر الله، وليس لأحد أن ينصب نفسه حكمًا على الآخرين.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾

ألم تر أيها الإنسان أن الله يسجد له كل من فى السموات وكل من فى الأرض طاعة وانقيادًا، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، باتباعها قوانين الله وسننه، وبغير ذلك مما لا نعرفه من أمور الغيب، أما الناس فكثير منهم يسجدون سجود طاعة، ولكن هناك الكثير من الناس يتكبرون ويجحدون، فحق عليهم العذاب، ومن يهن الله فما له من أحد يكرمه بموازين الله، موازين الحق، وليس بموازين الأرض ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فلا أحد راد لفعله، وهو يفعل ما يليق بجلال شأنه.

***

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

هذان فريقان اختصموا فى الله، فريق آمن وفريق كفر. قال كثير من المفسرين: إنها نزلت فى موقعة بدر بين المسلمين والكفار، وقالوا إنها نزلت فى حمزة وعلى وعبيدة، حين بارزوا عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، ولكنها تعم كل من سلك مسلك الخصمين، فالعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، فأما الذين كفروا ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ فصلت لهم ثياب مشتعلة قدر أجسامهم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ يُصب الماء المغلى فوق رءوسهم، وجلودهم وبطونهم، تمنعهم مضارب من الحديد عن الخروج من عذاب الحريق.

وفى المقابل، ينعم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، يلبسون أفضل اللباس، ويتزينون أفضل الزينة، ويهديهم ربهم إلى أفضل القول والحوار بين بعضهم البعض، وإلى طريقه الحميد.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾

إن الكفار الذين يصدون الناس عن الإسلام، وعن دخول المسجد الحرام للتعبد وقد جعله الله للمؤمنين ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ العاكف فيه هو المقيم، والباد هو الذى جاء من البادية أو من ورائها، وسواء تعنى أن البيت لكل الناس، المقيمين حوله، والآتين من خارجه، فى العبادة والإقامة، معتمرين أو حجاجًا، وعلى أمير المدينة أو حاكمها تنظيم ذلك. وقال الماتريدى: [قال أبو حنيفة: أكره إجارة بيوت مكة فى الموسم من الحاج والمعتمر، فأما المقيم والمجاور فلا نرى بأخذ ذلك منهم بأسًا، وهو قول محمد (الشيبانى)]، والشافعى يرى جواز تمليك وتوريث وتأجير بيوت مكة استنادًا لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم ﴾ [الحج: ٤٠]، [الحشر: ٨]، فتكون التسوية فى أداء المناسك والمجاورة ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى المقصود بكلمة ظلم، هل هو الشرك؟ أم الكبائر؟ أم أى ذنوب؟ وهل يُجازى على الإرادة فقط أم على إنفاذها؟ والله أعلم.

* * *

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾

لقد كان مشركو مكة يدعون أنهم أتباع إبراهيم (ﷺ) وأنهم مؤمنون بدينه، ومع ذلك كانوا يعبدون الأصنام، فذكر الله ما فعله لإبراهيم (ﷺ) ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ مكنا وجعلنا لإبراهيم بيت الله الحرام مرجعًا يعود إليه للعبادة، لا يشرك بالله، ويطهره من الأصنام بدعوة التوحيد للطائفين والمصلين. وأمر الله إبراهيم (ﷺ) أن يدعو الناس للحج والعمرة،

يأتون من كل مكان بعيد سيرًا على أقدامهم، وعلى ظهور دوابهم التى أصابها الهزال من السفر ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ منافع روحية بأدائهم الشعائر وتعلمهم دينهم، وأخرى مادية بالتجارة وما إلى ذلك ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ قيل العشر من ذى الحجة، أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومين بعده، أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده، فكلوا من لحم الأضحية، والأمر للندب ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ والأمر هنا للوجوب ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال الماتريدى: [وأهل التأويل يقولون: التفث: هو حلق الرأس، وقصّ الأظفار والشارب، والرمى، والذبح، ونحوه. وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ المناسك كلها. وروى فى الخبر: «من وقف من عرفة بليل، وصلى معنا الجمع، فقد تم حجّه وقضى تفثه» (رواه أبو داود)، ظاهر «قضى تفثه»، أى نسكه، وجائز أن يكون: جاء وقت الزينة، وهو وقت الحلق واللباس، والله أعلم] ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ليوفوا ما نذروه لله من أعمال البر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو طواف الإفاضة الذى هو من أركان الحج، والعتيق أى البيت العريق الكريم الخالص لله، وقيل: سُمى العتيق؛ لأن الله يعتق الرقاب من النار عنده، وقيل: معناها القديم، وقيل غير ذلك.

***

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)﴾

ومن يعظم ما حرم الله انتهاكه من أحكام، ومنها الحرم ومناسك الحج ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فى الآخرة والأولى، وأحل الله لكم أكل لحوم الإبل والبقر الضأن والمعز ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ـ كما بينته الآية الثالثة من سورة المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ـ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ فاجتنبوا الأوثان كما تجتنبون النجاسة، وقرنت الآية اجتناب عبادة الأوثان باجتناب قول الزور، فاعتبروا يا أولى الألباب ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عن الباطل إلى الإسلام الحق ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ سقط من سماء الإيمان إلى أسفل الشرك ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تتقاذفه ريح أهوائه فتمزقه طيور رغباته ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أو تسقطه ريح أهوائه إلى مكان هلاكه، ولا يعظم شعائر الله إلا المتقون ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾

ولكم فى الأنعام المهداة منافع كالركوب واللبن والكساء والمأوى إلى وقت نحرها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى الحرم.

***

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾

قال الماتريدى: [قال بعضهم: المنسك: الموضع الذى يعبدون فيه، ومن ثم يقال للعابد: ناسك. وقال المنسك: الدين، وقال: الشريعة، وجائز أن يُسمى فى اللغة الذبح: نسكًا].

تقول الآيات: جعل الله لكل أمة شرعًا، وطريقة نسك للتقرب إلى الله بالذبائح والأضحية، وذلك مثل قوله فى سورة المائدة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [٤٨]، ومع تعدد الشرائع، فإلهكم واحد، والإيمان به واحد، فله أسلموا وجوهكم، وبشر الخاشعين الخاضعين المذعنين لله، الذين تجيش قلوبهم بالمشاعر عند ذكر الله، الصابرين على عزم الأمور، الذين يقيمون الصلاة وينفقون من مال الله الذى آتاهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فالإسلام دين إيمان وعمل ﴿وَالْبُدْنَ﴾ الإبل عند الأحناف والمالكية أيضًا والبقر المهدى إلى البيت الحرام ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من مناسك الحج ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ عندما تكون قائمة مصفوفة للنحر ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فسقطت على الأرض ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ القانع: هو الفقير المتعفف عن السؤال، والمعتر: هو الذى يتعرض لكم دون أن يسأل حرجًا وتعففًا، هكذا سخر الله لكم هذه الأنعام؛ لعلكم تشكرون. لن ينال الله شيئًا من ذبائحكم، فهو الذى سخرها لكم، ولكن تنالها تقواكم، فكبروا الله على هدايته لكم، وبشر يا محمد المحسنين.

***

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من يؤمن حق الإيمان، ويتدبر هذه الآية، لن يخاف إلا الله وحده، فالله يدافع عنه، ووجب عليه أن يجاهد في سبيل الله، لا يخاف لومة لائم، ولا منافقًا غاشمًا، ولا عدوًّا ظالمًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ كثير الخيانة للأمانة ﴿ كَفُورٍ ﴾ شديد الكفر جاحد للنعم ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أذن الله للمؤمنين الذين ظلمهم أهل مكة، فقاطعوهم وقمعوهم حتى أخرجوهم من ديارهم، فتركوا أموالهم وتجاراتهم ـ ثم استحل أهل مكة ومن تابعهم دماء المسلمين ـ ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أخرج أهل مكة المسلمين من ديارهم، فمنهم من هاجر إلى الحبشة، ثم هاجروا كلهم إلى المدينة، أولئك أذن الله لهم بالقتال ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الصوامع والبيع هي أماكن عبادة الرهبان والمسيحيين، والصلوات هي معابد صلاة اليهود، ومعنى الآية: أنه لولا يد الله لهدم الكافرون أماكن عبادة المؤمنين من الأديان الإبراهيمية الثلاثة، ومن ينصر الله باتباع دينه، ينصره الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ينصر الله أولئك ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ .

***

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

إن يكذبك قومك، فقد كذبت أقوام كثيرة رسلهم ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فصبر الله عليهم وأمد لهم في دنياهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر كيف أنكرت عليهم تكذيبهم،

فأخذتهم أخذ عزيز مقتدر، وقد أهلكنا كثيراً من القرى الظالمة، فأصبحت مبانيها وقصورها خالية من سكانها، وآبارها لا يستخدمها أحد، أفلم يعرف المكذبون ذلك فى سيرهم فى الأرض؟ ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ ولكن تعمى البصائر.

***

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾

كذَّبت الأمم السابقة رسلها، فقالوا فى مكابرة وتحد وعناد ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥] ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فقد حدد لكل ظالم يومه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال مجاهد: [هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة]] وتبين، وغيرها من الآيات، نسبية الزمن. قل لهم يا محمد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بما يوحى إلى ربى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أما الذين سعوا فى تحدى آياتنا وصد الناس عنها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

***

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾

قال الماتريدى: [﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: عند تلاوته القرآن (ألقى الشيطان) فى قلوب الكفرة ما يجادلون به رسول الله ويحاجّونه؛ فيشبهون بذلك على الأتباع (يخدعونهم) ليتبعوهم، وهو نحو قولهم: إنه يحرم ما ذبحه الله، ويحل ما ذبح هو بنفسه، ونحو قولهم عند نزول قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

﴿دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقالوا: إن عيسى وعزيرًا والملائكة عُبدوا دون الله فهم حصب جهنم إذن، ونحو صرفهم قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، إلى حساب الجُمَّل، وأمثال هذا مما حاجُّوا رسول الله، فأخبر أنه ينسخ مجادلتهم ومحاجتهم رسوله، وأنه يُحكم آياته. ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ نسخ ما ألقى الشيطان فى قلوب أولئك الكفرة ما به جادلوه، وأحكم آياته بما ذكرنا]، وقال المراغى: [وخلاصة ذلك ـ إن الله حين أنزل القرآن وقرأه الرسول (ﷺ) قال المشركون فيه ما قالوا، ثم لما استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم فى دينهم أفواجًا: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطُّفيليةَ التى تنبت فى الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس، ولا تزال تتغذى من الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع، فلا يهدأ للزراع بال حتى يزيلها ويوفّر غذاءها للنبات الذى هو فى أشد الحاجة إليه.

وما أشبه الليلة بالبارحة[1]، فإنك الآن لترى أهل أوروبا يرسلون الجيوش من القساوسة التى تفتح المدارس فى بلاد الشرق ويقولون للمسلمين: إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب ويشككون فيه من تعلموا فى تلك المدارس، ويصدق بعض غوغائهم تلك الأباطيل، حتى لقد قالوا إن هذا الدين لا يعيش فى ظل العلم، ولا يقبل الأفكار والآراء الراقية، وهو والعلم عدوان لا يجتمعان، ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال، وقبيح المعتقدات والأعمال مما جعلهم مُضغة فى أفواه الأمم المتمدينة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

وإن الله لينسخ تلك الوساوس، ويزيل هذه الأوهام، فقد تصدى كثير من ذوى المعرفة لدحض تلك المفتريات، فقام العالم الحكيم محمد عبده، وألف كتابه [الإسلام والنصرانية] ودفع كثيرًا من مطاعن أولئك المبشرين، وقام بعده كثير من أهل الفقه بالدين، فاحتذَوا حذْوَه، وواصلوا الليل بالنهار فى دحض تلك الشبه، وإن الله ناصر دينه ولو كره الكافرون.

(١) قال المراغى (رحمه الله) ذلك منذ حوالى ثلاثة أرباع قرن.

هذا وقد دسَّ بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصولُ الدين تكذّبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها، وأنها ليست من الحق فى شىء، وهى مما تشكّك المسلمين فى دينهم، وتجعلهم فى حيرة من أمر الوحى وكلام الرسول، فيجب على العلماء طرحه وراءهم ظهريا، ولا يضيعون الزمن فى تأويلها وتخريجها، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدثين على وضعها وكذبها، لمصادمتها لأصول الدين التى لا تقبل شكًا ولا امتراء. ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى والله عليم بكل شىء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه فتنة واختباراً للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض، وللكافرين الذين قست قلوبهم، فلا تلين لقبول الحق، ولا ترعوى عما هى فيه من الغىّ]، وقال سيد قطب: [إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شىء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذى جاءوهم به من عند الله فيتبعوه.. ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثيرة. والرسل بشر محدودو الأجل. وهم يحسون هذا ويعلمونه. فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد موروثات فيسكتوا عنها مؤقتًا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة! ويودون مثلاً لو جاروهم فى شىء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودون. ويودون. من مثل هذه الأمانى والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فالكسب الحقيقى للدعوة فى التقدير الإلهى الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم.. هو أن تمضى على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص من أول الطريق.

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية، وفى بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها فى النفوس.. ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم

من خطأ فى اجتهادهم للدعوة. كما حدث فى بعض تصرفات الرسول ـ (ﷺ) ـ وفى بعض اتجاهاته، مما بين الله فيه بيانًا فى القرآن(١).

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنالك شبهة فى الوجه الصواب:

«والله عليم حكيم». . . فأما الذين فى قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين؛ فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق: «وإن الظالمين لفى شقاق بعيد». وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل: «وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم».

وفى حياة النبى (ﷺ) وفى تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا].

وفى التأويل الفاسد للآية ٥٢، كتب سلمان رشدى آياته الشيطانية، والتى استمرت عدة أشهر تحقق أعلى مبيعات فى بريطانيا، ومنحته ملكة بريطانيا لقب سير تقديراً لهذه الرواية، وقال أحد المسئولين البريطانيين إن ذلك يُعد تقديراً من حكومة جلالتها للآخرين، ويقصد بذلك المسلمين، برغم أن سلمان رشدى أعلن أنه لم يعد مسلمًا! وتحجج البعض بأن تلك هى حرية الرأى، والبعض الآخر بأن تلك هى حرية الإبداع.

***

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾

سيستمر الكفار فى ريبهم يترددون، نزولاً على أهوائهم، حتى تأتيهم ساعة موتهم فجأة، أو يحل عليهم عذاب يوم لا يأتيهم خير فيه، وهو يوم الحساب. يحكم مالك يوم الدين فيهم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وفى المقابل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

(١) مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أما ﴿ الذين هاجروا في سبيل الله ﴾ فارين بدينهم يبتغون وجه الله ثم قتلهم الكفار أو ماتوا، فقد وقع أجرهم على الله، وسيجزل لهم الثواب، فهو خير الرازقين، وليدخلهم فيما يرضيهم من جنات النعيم، وإنه ﴿ لعليم حليم ﴾ .

* * *

﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور (٦٠) ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير (٦١) ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير (٦٢) ﴾

فمن حق المعتدى عليه أن ينزل بالمعتدى نفس العقاب، وبالطبع له أن يطلب التعويض، وله أن يعفو، فإذا بغى المعتدى بعد ذلك ولم يستطع المعتدى عليه أخذ حقه، فسينصره الله عاجلاً أو آجلاً، ومن قدر على العقاب وعفا فإنه يسعى وراء ﴿ لله المثل الأعلى ﴾ والله العفو الغفور يحب المحسنين. واعلموا أيها المظلومون أن الظلم له نهاية، كما أن لظلام الليل نهاية بطلوع النهار، وأن أحوال البشر تتقلب كما يتقلب الليل والنهار، وأن الحكم الحق سميع بصير، والباطل عمره قصير مهما طال وارتفع، ففي النهاية ﴿ الله هو العلي الكبير ﴾ .

* * *

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير (٦٣) له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد (٦٤) ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم (٦٥) وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور (٦٦) ﴾

ألا تتدبر أيها الإنسان ﴿ أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ بما ينبت فيها من نبات ﴿ إن الله لطيف ﴾ بعباده يعلم حاجاتهم وما يُصلحهم ﴿ خبير ﴾ بما ينفعهم ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني ﴾ عن عباده ﴿ الحميد ﴾ بحق. ألم تر أيها الإنسان ﴿ أن الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ من جماد ونبات وحيوان، ووضع للكون قوانين، ومنحكم ما يمكنكم به معرفة تلك القوانين واستخدامها لتحقيق مصالحكم ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ بما وضعه من قوانين للحركة والطفو واختراق الوقود وما إلى ذلك ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ جاء في هامش المنتخب في تفسير القرآن [تجلت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيأ غلافًا جويًا يحتوي على

العناصر الغازية التى لا غنى للحياة عنها؛ كما أنه يحمى سكان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب والنيازك التى تهيم فى الفضاء، والتى عندما تدنو من الأرض تحترق فى جوها العلوى قبل أن تصل إلى السطح، وبإرادة الله المنعم يكون سقوط النيازك التى تدمر سطح الأرض نادر الحدوث] ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ليوم الحساب، ومع ذلك تكفرون به.

***

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١)﴾

قال المراغى: [أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها، ويسيرون على نهجها، لا يتخطونها إلى غيرها، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها ما فى التوراة، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد (ﷺ) منسكها ما فى الإنجيل، وأمة محمد (ﷺ) وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم ما فى القرآن؛ لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقْبة.

﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ﴾ أى فلا ينبغى لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة زعمًا منهم أن شريعتهم هى ما عُيِّنَ لآبائهم من التوراة والإنجيل، فذلك خطأ منهم، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن. والخلاصة ـ أثبت أيها الرسول على دينك ثباتًا لا يطمعون أن يجذبوك منه ليزيلوك عنه] ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ اصبر وثابر على تبليغ الدعوة واثقًا بأنك ﴿لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ صراط العزيز الحميد ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨)﴾ إنه خبير بخبايا صدوركم وما تقصدون ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فى كل ما اختلفتم فيه وتخاصمتم من أجله، فانتظروا حتى تروا حكم الله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ

أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾ إن الذين يجادلونك يعبدون ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ برهانًا أو حجة ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا يعرفون حقيقة ما يعبدونه، إنما هم يجرون وراء أهوائهم، هؤلاء المشركون بربهم لا نصير لهم ولا مدافع عنهم يوم القيامة.

* * *

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) ﴾

وإذا تلى المؤمنون آيات الله البينات على الكفار، كاد الكفار يبطشون بهم، إنكارًا للحق. قل لهم يا محمد: النار التى ستصلونها فى جهنم أكثر شرًا عليكم من كراهيتكم للمسلمين وإنكاركم لآيات الله البينات. واستمعوا أيها الناس للمثل الذى نضربه لكم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ إن كل ما تدعون من دون الله لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا لذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ بل لا يستطيعون استرداد ما يأخذه الذباب منهم ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ فما أضعف تلك الآلهة، وما أضعف الذباب، ومن ناحية أخرى ما أضعف هؤلاء المشركين، وما أضعف شركائهم ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ لقد استهانوا بالله خالقهم، وهو القوى العزيز ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ والله خالق الكون، القائم على كل أموره واهب القوة والعزة لمن أراد، ومانعهما عمن أراد، يختار ويصطفى رسله من الملائكة ومن الناس ـ فهو ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ـ فعلى أى أساس يرفضها الجاحدون؟ يعلم الله ما كان وما سيكون من أمور الملائكة والناس والكون كله، وإليه يرجع الأمر كله.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة وافعلوا الخيرات ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ جاهدوا فى إعلاء كلمة الله فى الأرض، فلهذا خلقكم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فالدين يسر لا عسر، ويجازى الله الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، ويزيد، والسيئة بمثلها، ويعفو، ولا يحاسب الله مَن أثم بسبب عدم معرفته، أو أثم بالخطأ أو بالنسيان، أو بالإكراه، وهو يغفر الذنوب جميعًا إلا أ ن يشرك به، وقال للبشر أجمعين: «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم، إن تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلىَّ ذراعًا تقربتً إليه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» رواه البخارى، وقال: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم إنك لوأتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» رواه الترمذى.

وقضى ربك أن يحسن الناس لوالديهم، ولأهلهم، وأن خير الناس خيرهم لأهله، وخير الناس أنفعهم للناس، وأن كمال الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وأن الناس متساوون فى الحقوق والواجبات، وأكرمهم عند الله اتقاهم، فليس هناك شعب مختار وأغيار مستبعدون، ولا أرض موعودة، ولا هرمجدون تقتل ثلث البشر ليهبط المسيح بسلام، إنما الميزان الحق هو الإيمان وعمل الصالحات، حتى الرحمة بالحيوان، فقد دخل الجنة من سقى كلبًا عطشانًا، ودخلت النار امرأة حبست قطة، فمنعت عنها الأكل والشرب. وقد كرمَّ الله البشر وجعلهم خلفاء له على الأرض، فما أجل وأعظم المهمة، وما أجل وأعظم الجزاء «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى الزموا ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحاء ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ سماكم الله المسلمين من قبل، ولذلك ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ﴿وَفِي هَذَا﴾ وأنزل عليكم هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بإبلاغه الرسالة ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بما قرأتم فى القرآن من تبليغ جميع الرسل لأقوامهم بالتوحيد. فاصبروا وصابروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، والتزموا كل شرعكم ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

***